المبحث الثاني

رؤية الإسلاميين ونظريتهم في التعامل مع المسيحيين العرب

حمزة منصور*

تستند رؤية الإسلاميين في التعامل مع المسيحيين العرب إلى ما قرره القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بشأنهم، وإلى التطبيقات الحصيفة عبر أكثر من أربعة عشر قرناً لنصوص القرآن والسُّنة، والى التجربة التي عاشها الإسلاميون.

وبتأمل النصوص القرآنية والنبوية يتضح لنا أن الإسلام كرّم الإنسان كإنسان، دون النظر إلى جنسه أو لونه أو معتقده، إذ يقول الله تعالى:{ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا}.

ويتضح أيضاً أن الإسلام يُقرّ بالأخوة الإنسانية بين البشر جميعاً، فهم من نسل رجل وامرأة، ولا تفاضل بينهم إلا بالتقوى وعمل الخير، يقول الله تعالى: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إنّ الله عليم خبير}، ويقول الرسول عليه السلام: (الخلق عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله).

وإن الإسلام يميز أهل الكتاب عن الوثنيين، ويؤمِن بكتبهم وأنبيائهم، وتبيان ذلك في قول الله تعالى: {آمن الرسول بما أُنزِل إليه من ربه، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله}، ويأمر الله بمجادلتهم بالتي هي أحسن: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن}،

* أمين عام جبهة العمل الإسلامي- الأردن.

ويأمر ببرهم والإحسان إليهم: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين}.

ويعترف الإسلام بمواطنتهم، ويكفل سائر حقوقهم في الحياة والإقامة والانتقال والعمل والمساواة والتأمينات الصحية والاجتماعية، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة) وقال: (من آذى ذمّياً فأنا خصمه)، وجاءت كلٌّ من وثيقة المدينة وصلح نجران والعهدة العمرية ضمانات لحقوق المواطنة.

وقد ميز الإسلام المسيحيين عن اليهود، فضلاً عن تمييزهم عن المشركين، فهم الأقرب مودة للمؤمنين، لقول الله تعالى: {لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون}.

في ظل هذا التصور عاش المسيحيون في ظل الدولة الإسلامية، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، آمنين على أنفسهم وأموالهم وأهليهم، ويحظون بالتأمينات الاجتماعية التي يتمتع بها المسلمون، ويمارسون عباداتهم وطقوسهم بحرية تامة، ولا أدلّ على ذلك من إكرام النبي صلى الله عليه وسلم لنصارى الحبشة حين وفدوا عليه، وقيامه بنفسه على خدمتهم.

وتعدّ كلٌّ من وثيقة المدينة المنورة، وصلح نجران، وعهدة عمر بن الخطاب، معالجات إنسانية متطورة للعلاقات بين التكوينات الاجتماعية والسياسية للمجتمع الأهلي حديث العهد بالإسلام؛ فقد ضمّت المبادئ والأسس الخاصة بالتعايش السلمي بين المسلمين والنصارى واليهود.

وقد سار الخلفاء والحكام على هدي الإسلام في رعاية حقوق غير المسلمين وضمان حقوقهم، وظل العلماء يُبَصّرون ويُذكِّرون بهذه الحقوق، حيث اتفق الفقهاء على أن (أهل الذمة) يتمتعون بحق العيش الكريم والإقامة والدائمة، والحماية والأمن، ومزاولة النشاط الاقتصادي والاجتماعي، والمساواة أمام القانون والقضاء.

ولم يعرف الإسلام ولا المسلمون التعصب، أو التطهير العرقي الذي عرفته ثقافات أخرى، يقول سيد كرد علي في كتابه تاريخ العرب والتمدن الإسلامي: (كان المسيحيون منذ تأسيس الدولة الإسلامية مغمورين بفيضٍ من الكرم والتسامح، فكانوا يؤدون شعائرهم الدينية بالحرية التامة، ويتمتعون بحقوقهم المدنية الكاملة، ولهم الحرية في التنقل في أنحاء الدولة العربية الإسلامية، ومُنِحت لهم الحرية للاتصال والمكاتبة مع أمراء الدول الغربية دون تقييد، كما كان لهم الحق في تملُّك الضياع والأراضي، وكانوا يتمتعون بالحقوق والواجبات نفسها التي يتمتع بها المسلمون، وكانت الوظائف الحكومية مفتوحة أمامهم دون تمييز بينهم وبين المسلمين).

وقد أقر كثير من المنصفين الأجانب بما ضمنته الشريعة الإسلامية لغير المسلمين من حقوق واحترام، يقول المؤرخ الشهير ولز: (إن تعاليم الإسلام أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم، وإنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة).

ويقول الفيلسوف الإنجليزي برنارد شو: (وإنني عندما درست حياة النبي محمد، باعتباره رجلاً عظيماً، رأيته بعيداً كل البعد عن مخاصمة المسيحية والمسيح، بل هو حقاً منقذ للإنسانية مع أخيه السيد المسيح).

ويقول المستر درابر الأمريكي: (إن المسلمين الأولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين واليهود على مجرد

الاحترام، بل فوّضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام، ومناصب الدولة العليا، حتى إن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنّا بن ماسويه).

واليوم، وفي أجواء ثورات الربيع العربي، وصعود نجم الإسلاميين عبر صناديق الاقتراع، ووصول بعضهم إلى مواقع السلطة، تثار كثير من التساؤلات والمخاوف حول وضع المسيحيين، وحول حقوقهم المكتسبة، وبعض هذه التساؤلات والمخاوف مشروع ومبرر، فبعد انقطاع الحكم الإسلامي، وبدافع الصراع مع الغرب المستعمر، وتنكره لحقوق الأمة، أصابت لوثةُ التعصب أفراداً وهيئات خلطوا بين المواطن والمحتل، والشريك في المواطنة والحضارة وبين العدو، وهي بلا شك حالة شاذة غريبة على التصور الإسلامي، وبعضها يأتي في سياق الحملة المنظمة على الإسلاميين، بل على الإسلام، تقودها قوى خارجية معادية للإسلام، وعلمانيون انسلخوا من الأديان، فعادوا كل ما يُمتّ الى الدين بصلة.

واليوم نجد أنفسنا أمام تحدي إبراز رؤية الإسلاميين ونظريتهم في التعامل مع المسيحيين العرب، بهدف تصحيح مفاهيم خاطئة ترسّخت لدى البعض، وتطمين المسيحيين العرب الذين هم جزء من نسيج الأمة، والتأسيس لعلاقة قائمة على المواطنة، وسحب الذرائع من الغرب الذي استغل كثيراً شعار حماية المسيحيين والمقدسات المسيحية ستاراً لتحقيق أطماع استعمارية في بلاد العرب والمسلمين.

وحين نتحدث عن رؤية الإسلاميين فإننا نقصد بذلك رؤية الإخوان المسلمين، والحركات والأحزاب والمفكرين الذين يرون رأيهم، وينطلقون من منطلقاتهم في التصور والسلوك. وطريقنا إلى ذلك أدبيات الإسلاميين، ممثَّلة في أنظمتهم السياسية، وبرامجهم الانتخابية، ومؤلفاتهم وتصريحاتهم وممارساتهم العملية، ولنبدأ من مصر كبرى الدول العربية، والتي يشكّل الأقباط فيها نسبة كبيرة نسبياً؛ حيث أطلق المرشد العام السابق لجماعة الإخوان المسلمين الأستاذ محمد

مهدي عاكف في ٣/ ٣/ ٢٠٠٤ مبادرة حول المبادئ العامة للإصلاح جاء فيها: (إن موقفنا من الإخوة الأقباط مبدئي وثابت، ومفروض على المسلمين بموجب إسلامهم وإيمانهم، ومؤكد بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ويتلخص بأنهم جزء من نسيج المجتمع المصري، وشركاء في الوطن والمصير، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وأن حرية الاعتقاد والعبادة محترمة للجميع، وإننا نحرص على روح الأخوة التي تجمعنا ... ونؤكد على الوحدة الوطنية، وعدم السماح لأي نشاط يؤدي إلى إثارة مشاعر التفرقة الدينية والتعصب الطائفي).

فالعلاقة هنا علاقة أخوة وشراكة ومساواة واحترام، والتزام بسائر الحقوق، وقد تجسّدت هذه الروح حين شكل الإخوان المسلمون فريقاً من الجماعة لحماية الكنائس لدى احتفال الأقباط بميلاد السيد المسيح عليه السلام، وتشكيل وفد برئاسة نائب المرشد العام لتقديم التهاني بالمناسبة.

وقد أكد حزب الحرية والعدالة، وهو حزب ناشئ من رحم جماعة الإخوان المسلمين في مصر، أكّد على هذه المعاني والقيم، واعتبرها ثوابت يتمسك بها، ويدعو إلى حمايتها، حيث يقول: (إن المصريين المسلمين والمسيحيين نسيج وطني واحد متلاحم ومتكامل، وهم متساوون في الحقوق، وعليهم كافة الواجبات، دون تمييز أو تفرقة، وعليهم جميعاً رفع الظلم الواقع عليهم ... وأن أساسَ المواطنةِ المساواةُ التامةُ أمام الدستور والقانون، والمشاركة الكاملة في الحقوق والواجبات، مع خصوصية الأحوال الشخصية (كل حسب شرعته).

ولا أخال هناك كلاماً أصرح ولا أوضح ولا أدعى إلى الطمأنينة من هذا الكلام (نسيج وطني واحد متلاحم ومتكامل، ومساواة في الحقوق والواجبات باستثناء خصوصية الأحوال الشخصية).

أما في سوريا فقد نص الإخوان المسلمون في المشروع السياسي لسوريا المستقبل الصادر عام ٢٠٠٤ على جملة أهداف، تضمنت إقامة النموذج الصالح الذي يحكم بين الناس بالعدل، وليس فقط بين المسلمين معاً، فهذه الصفة- الناس- هي التي يترتب عليها العدل الذي يشمل البشرية جمعاء، ويرى الإخوان المسلمون في سوريا أن المواطنة أو الجنسية التي تمنحها الدولة لرعاياها قد حلّت محلّ (أهل الذمة)، وأن هذه المواطنة أساسها المشاركة الكاملة، والمساواة التامة في الحقوق والواجبات السياسية والمدنية التي يكفلها الدستور، وتنظمها القوانين، مع بقاء مسألة الأحوال الشخصية (زواج وطلاق ومواريث) والحقوق الدينية محفوظة طبقاً لعقيدة كل مواطن.

وفي العراق يؤكد الدكتور عبد الكريم زيدان في كتابه (أحكام الذميين والمستأمنين) حقوق المواطنة الكاملة لغير المسلمين من أفراد شعب دار الإسلام، والدولة الإسلامية تأخذ بقاعدة المساواة في الحقوق والواجبات بين المسلم والذمي إلا ما كان مبنيّاً على قاعدة دينية).

وفي الأردن تقرر الحركة الإسلامية في رؤيتها للإصلاح الصادرة عام ٢٠٠٥ المساواة في الحقوق والواجبات بين جميع المواطنين، حيث نصت الرؤية على جملة أهداف، منها:

- توفير الأمن النفسي والاجتماعي والغذائي لكل مواطن.
- توفير الكسب الحلال لجميع المواطنين اعتماداً على حقوق المواطنة دون تمييز.
- توفير واحترام الحريات العامة للمواطنين.
- ضمان حرية الاعتقاد وإقامة الشعائر الدينية لجميع المواطنين.

- إحترام العقائد الدينية والتعددية الفكرية والسياسية وفقاً للدستور والمصالح العليا للوطن.

ويقول الأستاذ يوسف العظم- أحد قيادات الإخوان المسلمين في الأردن-: (إن غير المسلمين هم شركاؤنا في المسيرة، ورفقاؤنا في الرحلة، إن لهم نفس ما لنا من حقوق، وعليهم نفس ما علينا من واجبات ما داموا مخلصين يعملون لتطور هذا البلد).

ويقول الدكتور إبراهيم زيد الكيلاني- أحد قيادات الإخوان المسلمين في الأردن ووزير أوقاف أسبق-: (كل الأردنيين أردنيون، لهم نفس الحقوق ويتساوون في المشاركة بغض النظر عن أصولهم).

وتؤكد الممارسة العملية في الأردن متانة العلاقة بين الحركة الإسلامية في الأردن وكثير من الشخصيات المسيحية الدينية والسياسية، فقد دأبت الحركة الإسلامية على دعوة عدد من القيادات المسيحية الدينية والسياسية في كثير من المناسبات، ولم تتردد في تلبية دعوة هذه القيادات لمناسبات اجتماعية، كما استضافت الحركة الإسلامية عدداً من الرموز المسيحية متحدثين ومنتدبين في مقارها وأنشطتها، وضمت الكثيرين منهم في لجان وطنية.

وهكذا يتضح أن نظرة الإسلاميين للمسيحيين العرب تقوم على أنهم جزء من نسيج الوطن والأمة، وأنهم شركاء في الهمّ الوطني، وأن لهم كامل الحقوق على قاعدة (لهم ما لنا وعليهم ما علينا باستثناء خصوصية الأحوال الشخصية).

ولعل من المفيد في بحث هذه المسألة الإشارة إلى مصطلح ربما يثير حفيظة بعض المسيحيين العرب، وإن كان قد أصبح مسألة تاريخية، وجزءا من التراث، وما عاد يَرِد في معظم كتابات الإسلاميين، وهو مصطلح (أهل الذمة).

فالذمة في معناها الاصطلاحي عقد مؤبَّد يتضمن إقرار غير المسلمين على دينهم، وتمتعهم بأمان الجماعة الإسلامية وضمانها، فهم أهل العهد والضمان والأمان، ولفظ الذمة لا يقتصر استعماله على غير المسلمين، ففي الحديث النبوي الشريف: (من صلّى الفجر في جماعة فهو في ذِمّة الله).

وهو مصطلح لا غضاضة فيه، ولا ينتقص من حقوق المواطنة، وإن كان جزءاً من التاريخ، ويذهب محمد الغزاليّ- أحد منظري الفكر الإسلامي الحديث- إلى أبعد من ذلك فيقول: "والواقع أن الإسلام ينظر إلى من عاهدهم من اليهود والنصارى على أنهم قد أصبحوا من الناحية السياسية أو الجنسية مسلمين فيما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات، وإن بقوا من الناحية الشخصية على عقائدهم وعباداتهم وأحوالهم الشخصية".

ويبقى التحدي الأكبر أمام الحركة الإسلامية ورجال الدين المسيحي المستنيرين، والسياسيين الملتزمين بثقافة الأمة ومصالحها العليا، في الإعداد لمزيد من الحوارات، وصولاً إلى برنامج مشترك يتم تبنيه لتعزيز قيم التسامح والتعاون، وبناء صيغ للعمل المشترك على الصعيدين الداخلي بما يسهم في تعزيز الوحدة الوطنية، والمشاركة في مشروع نهضوي على المستويين الوطني والقومي، والخارجي، لخدمة قضايا الأمة الرئيسة، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية، لتشكيل جبهة إسلامية- مسيحية مؤثرة وقادرة على مواجهة التحديات التي تعصف بأوطاننا وأمتنا وشعوبنا العربية، وعلى رأس هذه التحديات المشروع الصهيوني واحتلال فلسطين.

التـــــعقيب*

كل الشكر لمنظمي هذه الندوة، وللمحاضرَيْن، كما أشكر صاحب السيادة الأنبا يوحنا قلته على ما ذكر وحلّل من أوضاع تمر بها المنطقة العربية، ولي بعض الملاحظات آمل أن يوضحها المحاضر، فعندما تحدثتم عن الربيع العربي أنه ليس صدفةً، بل كان نتيجة أوضاع راهنة في ظل الحكم والحكام، وددت أن يكون هناك تحليل أعمق لهذا الربيع ومخاوف ارتباطه بـ "مشروع الشرق الأوسط الكبير" وتحدثتم عن الثقافة الدينية، فالتدين جيد، ولكن هل كانت انعكاساته إيجابية على الوضع أم لا؟

لقد بيّضتم الصفحة المجتمعية الحاكمة في مصر، وبالأخص العلاقة المسيحية- الإسلامية، وتجاهلتم، أو لم تذكروا السلبيات التي مرّت على الحكم الإسلامي في مصر؛ فعندما ندخل التاريخ فإن علينا قراءته بكل شفافية وبكل موضوعية، وأن نتصارح في هذا الأمر كما دعانا مدير المركز، ففي العهد الفاطمي، وعلى سبيل المثال، كان هناك اضطهاد شرس ضد الكنائس.

أعترف بأن الكنيسة حتى فترة قصيرة كانت مُغيِّبَة أو مُهمِّشة لدورها في الانخراط المجتمعي مما أدى إلى فجوة كبيرة مسيحية- إسلامية، وهذه الفجوة مجتمعية وثقافية، فالمسلم في الجامعة على سبيل المثال لا يتعلم شيئاً عن المسيحية ولا يفقه شيئا، في حين أن المسيحي في المدارس قد درس التاريخ العربي الإسلامي ودرس اللغة العربية وحفظ آيات وسوراً بكاملها، ونحن حفظنا في الصف الثالث الإعدادي سورة الرحمن غيباً، وجاءتنا ثلاثة أسئلة تحليلية منها، إذن، ثمّة فجوة وتهميش.

---

* د. قيس صادق: رئيس مركز الدراسات المسكونية- الأردن.

أعرف من علاقتي وخبرتي مع الكنائس في مصر بأن رؤساء الكنائس قاطعوا الانتخابات النيابية قبل عشر سنوات، وأعتبر أنّ المقاطعة انهزام، وعلى ما أعتقد فإن الأقباط لم يحصلوا على أي مقعد- عدا الكوتا- والتي تعد وأداً للحرية والديمقراطية، ولذلك لعبت الكنيسة دوراً سلبياً فيما يتعلق بموضوع الانخراط في حياة المجتمع في بعض الأحيان، وكان هناك تخوّف لأنها كانت تحسب العدد نسبة وتناسباً؛ والعدد الكبير سيبتلع الصغير، وهذا ما نشاهده اليوم في كنائسنا، فقد قام شباب الكنيسة بالانغلاق والاعتكاف مما أدى إلى تأزيم الهوية المسيحية- العربية.

وفي ملاحظة أخرى، انتشر على ألسنة المسيحيين في مصر: "نحن الأقباط لسنا عرباً" وفي لبنان: "نحن الموارنة لسنا عرباً"، والسريان كذلك، فموضوع العروبة والعربية كان مفقوداً للأسف في تراثنا المسيحي، والمسيحيون العرب لم يكتشفوا بعد هذه الهوية من خلال أدبائهم ومفكريهم العرب عبر القرون، فقد كان لهم دور كبير في حركة الترجمة العربية التي مهّدت لمزج الحضارة العربية الإسلامية بالحضارات الأخرى، ولكن كثيراً من المسيحيين لا يعلمون هذا التراث، ولا يدركون دورهم وإسهامهم في بناء هذه الحضارة العربية الإسلامية.

أما بالنسبة للتاريخ الإسلامي، فعلينا ألا ننسى الفترة التي حُرقت فيها الكنائس، ودُمّرت الأديرة، وقُتِل النسّاك في عصر الاستشهاد، فقد دُمِّر "دير مسرة" على سبيل المثال في فلسطين، ومع تركيزنا على الإيجابيات في ذلك التاريخ، إلا أنه لا بد ألا ننسى السلبيات أو نغفلها، بل أن نضعها قيد البحث لتفادي تكرارها.

وفي مجال الورقة الثانية المقدمة من الأستاذ حمزة منصور فأرى أنها تمركزت حول موقف الإخوان المسلمين من المسيحيين، وأنا كمسيحي اليوم لا أخاف مما

ذكره فضيلة الأستاذ منصور إطلاقاً، لأن هذا هو أسلوب العيش المشترك، ونحن في الأردن عشنا هذه الخبرة، واليوم لنا علاقات فيما بيننا، ولكن هل سيستمر هذا الوضع بعد جيلين أو لا؟ هذا هو التحدي، اليوم أنا أعرف كثيراً من الأردنيين على الأرض المقدسة لا يعرفون من هو الكاهن! فعلى الحدود الأردنية أوقفني ضابط برتبة رائد ينظر إلى جواز سفري بصورتي الإكليليكية وبالثوب ويقول لي: ما هي مهنة حضرتك؟ هذا في الأردن بوابة المسيحية إلى العالم.

إن مشروع تهجير المسيحيين مشروع دولي، وليس مشروعاً محلياً، فالحروب التي شهدتها المنطقة لم تؤدّ إلى هجرة المسيحيين وحسب، بل هجرة الأدمغة والعنصر الشبابي من المنطقة من مسيحيين ومسلمين، فخطة كسنجر لتفريغ المنطقة من المسيحيين وإيجاد خلل في المنطقة ليست وليدة اليوم، ولا وليدة الربيع العربي، إنها تراكمات سياسية دولية تهدف إلى تفريغ المنطقة من المسيحيين والجميع يعلم ذلك، والحرب اللبنانية أفرزت الكثير من هذه الإشكاليات.

وعلى صعيد آخر، أخشى أن يُختزل مفهوم الثورة عند كثير من الإسلاميين في مفهوم الجهاد، فما هو موقف الإسلاميين المعتدلين اليوم من هذا المفهوم؟ لا سيما أن هذه المفاهيم لا تولّد الخوف في قلوب المسيحيين وحسب، بل في قلوب المسلمين المعتدلين الوسطيين والمستنيرين الذين إن لم يأخذوا بفكر تلك الجماعات فهم أيضاً خارجون عن الإسلام، إذن هذه مواضيع نحن بحاجة إلى توضيحها، لأن المسيحي اليوم لا يخاف من المسلم الذي عاش معه وانسكبت دماؤهما معاً- أي دم المسلم والمسيحي- في الدفاع عن الوطن والأرض الواحدة.

وأتساءل أيضاً، هل مناهجنا التربوية كما ذكرتم هي على أبواب التغيير لقبول الآخر وقبول الذات؟ حيث نجد في مناهج التاريخ واللغة العربية في الأردن تكفيراً

للآخر، وعندنا نصوص واضحة من المناهج المدرسية، وبالأخص في المرحلة الثانوية، فهل نحن جادون بتغيير هذه الأوضاع؟ ومن ثم؛ ماذا بعد؟ فجيلنا استطاع بناء علاقات طيبة، أما الجيل الجديد فهو أكثر انغلاقاً، والسواد الأعظم من المسلمين والمسيحيين لا يعرف عن الحوار الذي نحن بصدده الآن، ونجتمع من أجله، ماذا بعد؟ هذا هو السؤال.